

سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزية (٥)

تهذيب
طريق الهجرتين وباب السعادتين

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١هـ)

إعداد

د. سلطان بن ناصر الناصر   د. تركي بن عبدالله الميمان

إشراف

عطاءات العلم



دار عطاءات العلم

١/ ٣٩٧

قاعدة

السير إلىٰ الله لا يتم إلا بقوتين: علمية وعملية

السائر إلىٰ الله تعالىٰ والدار الآخرة، بل كلُّ سائرٍ إلىٰ مقصد، لا يتم سيرُه ولا يصلُ إلىٰ مقصوده إلا بقوَّتين: قوَّة علمية، وقوَّة عملية.

فبالقوَّة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك، فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسبابَ الهلاك، ومواضعَ العطب، وطرقَ المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فقوَّتُه العلمية كنورٍ عظيم بيده، يمشي به في ليلة مظلمة شديدة الظلمة. فهو يبصرُ بذلك النورِ ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوِهاد والمَتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره. ويبصر بذلك النور أيضًا أعلامَ الطريق وأدلتها المنصوبة عليها، فلا يضل عنها. فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوَّة العملية يسير حقيقةً، بل السيرُ هو حقيقة القوَّة العملية، فإنَّ السيرَ هو عمل المسافر. وكذلك السائر إلىٰ ربِّه إذا أبصرَ الطريق وأعلامَها، وأبصرَ المعاثر والوِهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح. وبقيَ عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه علىٰ عاتقه، ويشمِّر مسافرًا في الطريق، قاطعًا منازلها منزلةً بعد منزلةٍ. فكلَّما قطع مرحلةً استعدَّ لقطع الأُخرىٰ، واستشعر القربَ من المنزل، فهان عليه مشقَّةُ السفر. وكلَّما شَكَتْ نفسُه من كَلالِ السير ومواصلة الشدِّ والرحل وعَدَها قُربَ التلاقي وبردَ العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمَّة.

١/ ٤٠٠

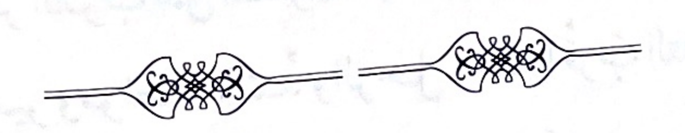
فصل

تقسيم الناس من حيث القوة العلمية العملية

فمن النَّاسِ من تكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوَّة أغلبَ القوَّتين عليه، ويكون ضعيفًا في القوَّة العملية. يبصر الحقائق ولا يعمل بموجَبها، ويرىٰ المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقَّاها. فهو فقيه ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل شارك الجُهَّال في التخلف، وفارقهم في العلم. وهذا هو الغالب علىٰ أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمة الله، فلا قوَّة إلا بالله.

ومن النَّاسِ من تكون له القوة العملية الإراديَّة، وتكون أغلبَ القوتين عليه. وتقتضي هذه القوةُ السيرَ والسلوك، والزهدَ في الدنيا، والرغبةَ في الآخرة، والجِدَّ والتشمير في العمل. ويكون أعمىٰ البصر عند ورود الشبهات في العقائد، والانحرافات في الأعمال والأحوال والمقامات، كما كان الأوَّل ضعيفَ العقل عند ورود الشهوات. فداءُ هذا من جهله، وداءُ الأوَّل من فساد إرادته وضعف عقله.

فمن كانت له هاتان القوتان استقام له سيرُه إلىٰ الله تعالىٰ، ورجي له النفوذ، وقوي علىٰ رد القواطع والموانع بحول الله وقوَّته.



قاعدة نافعة

١/ ٤٠٣

أقسام الناس في سفرهم إلىٰ ربهم

العبدُ من حين استقرَّتْ قدمُه في هذا الدار فهو مسافر فيها إلىٰ ربِّه، ومدَّة سفره هي عمره الذي كتب له. فالعمر هو مدَّة سفر الإنسان في هذه الدار إلىٰ ربِّه تعالىٰ، ثمَّ قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكلُّ يوم وليلة مرحلةٌ من المراحل، فلا يزالُ يطويها مرحلةً بعد مرحلةٍ حتَّىٰ ينتهي السفر.

فالكيِّس الفطِن هو الذي يجعل كلَّ مرحلة نُصْبَ عينيه، فيهتمُّ بقطعها سالمًا غانمًا، فإذا قطعها جعل الأخرىٰ نصب عينيه. ولا يطول عليه الأمد، فيقسو قلبه، ويمتدُّ أمله، ويحضر بالتسويفُ والوعد والتأخير والمطل؛ بل يعدّ عمرَه تلك المرحلة الواحدة، فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته. فإنَّه إذا تيقَّن قِصَرَها وسرعةَ انقضائها هان عليه العمل، وطوَّعت له نفسه الانقياد إلىٰ التزوُّد؛ فإذا استقبل المرحلة الأخرىٰ من عمره استقبلها كذلك. فلا يزالُ هذا دأبه حتَّىٰ يطوي مراحل عمره كلَّها، فيحمد سعيَه، ويبتهج بما أعدَّه ليوم فاقته وحاجته. فإذا طلع صبح الآخرة، وانقشع ظلام الدنيا، فحينئذٍ يحمد سُراه، وينجلي عنه كَراه[1]. فما أحسنَ ما يستقبل يومَه، وقد لاحَ صباحُه، واستبانَ فلاحُه!

ثمّ النَّاس في قطع هذه المراحل قسمان:

فقسم قطعوها مسافرين فيها إلىٰ دار الشقاءِ، فكلَّما قطعوا مرحلةً منها قَرُبوا من تلك الدَّار، وبَعُدُوا عن ربهم وعن دار كرامته. فقطعوا تلك المراحل

(١) الكرىٰ: النعاس والنوم.

بمساخط الرب ومعاداته، ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره، وإبطال دعوته -دعوة الحق- وإقامة دعوة غيرها. فهؤلاءِ جُعلت أيَّامُهم مراحلَ يسافرون فيها إلىٰ الدار التي خُلِقوا لها، واستُعْمِلوا بعملها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكَّلةِ بهم حين يسوقونهم إلىٰ منازلهم سوقًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]، أي تزعجهم إلىٰ المعاصي والكفرِ إزعاجًا، وتسوقهم سوقًا.

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلىٰ الله وإلىٰ دار السلام. وهم **ثلاثة أقسام**: ظالمٌ لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدُّون للسير موقنون بالرُّجعىٰ إلىٰ الله، ولكن متفاوتون في التزوُّد وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفسِ السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه مقصر في الزاد غير آخذٍ منه ما يبلِّغه المنزل، لا في قدره ولا في صفته؛ بل مفرِّط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده. ومع ذلك فهو متزوِّد ما يتأذَّىٰ به في طريقه، ويجد غِبَّ أذاه إذا وصلَ المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضارّ.

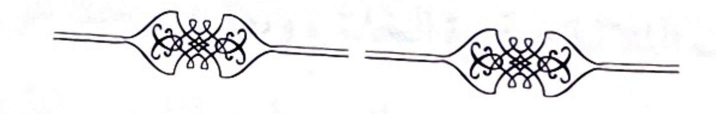
والمقتصد اقتصر من الزاد علىٰ ما يبلّغه، ولم يشدَّ مع ذلك أحمالَ التجارة الرَّابحة، ولم يتزود ما يضره. فهو سالم غانم، لكن فاتته المتاجر الرَّابحة، وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات همُّه في تحصيل الأرباح، وشدِّ أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل. فيرىٰ خسرانًا أن يدخر شيئًا ممَّا بيده ولا يتَّجر فيه. فيجدُ ربحَه يوم يغتبط التجار بأرباح تجارتهم. فهو كرجل قد علم أنَّ

أمامه بلدةً يكسب الدرهم فيها عشرةً إلىٰ سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد، وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيعُ ثيابه وكلّ ما يملك حتّىٰ يهيئ به تجارةً إلىٰ ذلك البلد لفعل. فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن ربِّه يرىٰ خسرانًا بيِّنًا أن يمرَّ عليه وقتٌ في غير متجر.

فنذكر بعون الله وفضله **نبذةً من متاجر الأقسام الثلاثة** ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأمَّا الظالم لنفسه فإنَّه إذا استقبل مرحلةَ يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلىٰ قلبه، فحرَّكت جوارحَه طالبةً لها ساعيةً فيها. فإذا زاحمَتْها حقوقُ ربِّه فتارةً وتارةً: فمرَّةً يأخذ بالرخصة، ومرَّةً بالعزيمة، ومرَّةً يقدم علىٰ الذنب وتركِ الحقِّ تهاونًا ووعدًا بالتوبة. فهذا حالُ الظالم لنفسه، مع حفظ التوحيد، والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب. فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما. فإذا وردَ القيامةَ مُيِّزَ ربحُه من خسرانه، وحُصِّل ربحُه وحده، وخسرانُه وحده، وكان الحكم للرَّاجح منهما. وحكم الله ﷻ من وراءِ ذلك، لا يَعْدَم عبادُه منه فضلَه وعدلَه.



فصل

١/ ٤٠٦

المقتصدون هم المحافظون علىٰ الفرائض

وأما المقتصدون: فأدوا وظيفةَ تلك المرحلة، ولم يزيدوا عليها، ولم ينقصوا منها. فلا حصلوا علىٰ أرباح التجار، ولا بخسوا الحقَّ الذي عليهم.

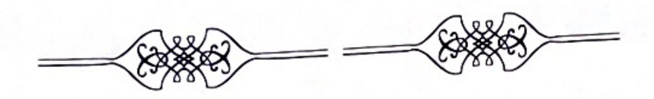
فإذا استقبلَ أحدهم مرحلةَ يومه استقبلها بالطهور التامِّ والصلاة التامَّة في وقتها، بأركانها وواجباتها وشرائطها؛ ثمَّ ينصرف منها إلىٰ مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذنَ الله له فيها مشتغلًا بها، قائمًا بأعبائها، مؤديًا واجبَ الربِّ فيها، غير متفرِّغٍ لنوافل العبادات وأوراد الأذكارِ والتوجه.

فإذا حضرت الفريضة الأخرىٰ بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلىٰ حاله الأوَّل، فهو كذلك سائر يومه.

فإذا جاء الليل فكذلك إلىٰ حين النوم، يأخذ مضجعه حتَّىٰ ينشقّ الفجر، فيقوم إلىٰ عَدَّانه[1] ووظيفته.

فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقِّه، وكذلك الزكاة الواجبة، والحج الواجب.

وكذلك المعاملة مع الخلق، يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم، ولا يترك حقَّه لهم.



(١) أي إلىٰ عهده.

فصل

١/ ٣٧٧

أنواع السابقين إلىٰ الخيرات

وأمَّا **السابقون بالخيرات** فهم نوعان: أبرار ومقرَّبون. وهؤلاءِ الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين، وهم المقتصدون، والأبرار، والمقرَّبون. وأمَّا الظالم لنفسه فليسَ من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلىٰ أصحاب اليمين، كما أنَّه لا يسمَّىٰ مؤمنًا عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

وقد **اختُلِف في قوله تعالىٰ**: ﴿جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [فاطر: ٣٣] الآية، هل ذلك راجعٌ إلىٰ الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات؛ أو يختص بالقسمَين الأخيرين، وهما: المقتصد، والسابق دون الظالم= علىٰ قولين:

فذهبت طائفة إلىٰ **أنَّ الأصناف الثلاثة كلَّهم في الجنَّة**، وهذا يروىٰ عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وعائشة أم المؤمنين ﭫ.

واحتجت هذه الفرقة بأنَّه سبحانه سمَّىٰ الكلَّ «مصطفين»، وأخبر أنَّه اصطفاهم من جملة العباد. ومحال أن يكون الكافر والمشرك من المصطفَين، لأنَّ الاصطفاء هو الاختيار، وهو الافتعال من صفوة الشيء، وهو خِياره. فعُلِمَ أنَّ هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق، وبعضُهم خيرٌ من بعض: فسابقُهم مصطفىٰ عليهم، ثمَّ مقتصدهم مصطفىٰ علىٰ ظالمهم، ثمَّ ظالمهم مصطفىٰ علىٰ الكافر والمشرك.

واحتجت أيضًا بآثار روتها تؤيد ما ذهبت إليه.

وقالت طائفة: بل الوعد بالجنَّات إنَّما هو للمقتصد والسابق، دون الظالم لنفسه. فإنَّ الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق، والظالم لنفسه هنا هو: الكافر، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: المؤمن التقي.

وهذا يروىٰ عن عكرمة، والحسن، وقتادة. وهو اختيار جماعة من المفسرين منهم صاحب «الكشَّاف»، ومنذر بن سعيد في «تفسيره»، والرماني، وغيرهم.

قالوا: وهذه الآية متناولة لجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم.

وهي نظير آية: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ٧- ١٠]. قالوا: فأصحاب الميمنة هم المقتصدون، وأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم، والسابقون هم السابقون بالخيرات.

قالوا: ولم يصطفِ الله من خلقه ظالمًا لنفسه، بل المصطفَون من عباده هم صفوته وخيارهم، والظالمون لأنفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم، فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين ويتناولهم فعل الاصطفاء؟

قالوا: وأيضًا فهذه طريقة القرآن في ذكر أصناف الخلق الثلاثة، كما ذكرهم تعالىٰ في سورة الواقعة والمطففين وسورة الإنسان.

وقالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ الاصطفاء افتعال من الصفوة، وهي الخيار، وهي إنَّما تكون في السعداء، فهذا بعينه حجة لنا في أنَّ الظالم لنفسه ليس ممن اصطفاه الله من عباده، وقد تقدم تقريره.

قالوا: وأمَّا الآثارُ التي رويتموها عن النبيِّ ﷺ في ذلك فكلها ضعيفة

الأسانيد أو منقطعة لا تثبت، كيف وهي معارَضةٌ بآثار مثلها أو أقوىٰ منها.

قالت الطائفة الأولىٰ: لو تدبرتم القرآن حقَّ تدبره، وأعطيتم الآيات حقَّها من الفهم، وراعيتم وجوهَ الدلالة وسياق الكلام، لعلمتم أنَّ الصوابَ معنا، وأنَّ هذه الأقسام الثلاثة من الأقسام التي خلقت للجنَّة، وهم درجات عند الله؛ وأنّ هذا التقسيم الذي دلّت عليه أخصُّ من التقسيم المذكور في سورة الواقعة والإنسان والمطفّفين. فإنّ ذلك تقسيمٌ للناس إلىٰ شقيّ وسعيد، وتقسيمٌ للسعداء إلىٰ أبرار ومقرّبين، وتلك القسمة خالية عن ذكر العاصي الظالم لنفسه. وأما هذه الآيات ففيها تقسيم الأُمّة إلىٰ محسن ومسيء، فالمسيء هو الظالم لنفسه، والمحسن نوعان: مقتصد، وسابق بالخيرات. فإنَّ الوجود شامل لهذا القسم، بل هو أغلب أقسام الأمة، فكيف يخلو القرآن عن ذكره وبيان حكمه؟ ثمَّ لمَّا استوفىٰ أقسام الأُمة ذكر الخارجين عنهم، وهم الذين كفروا، فعمَّت الآية أقسامَ الخلق كلِّهم. وعلىٰ ما ذهبتم إليه تكون الآية قد أهملَتْ ذِكرَ القسمِ الأغلب الأكثر، وكرَّرت ذكر حكم الكافر أوّلًا وآخرًا. ولا ريبَ أنَّ ما ذكرناه أولىٰ لبيان حكم هذا القسم، وعموم الفائدة.

قالوا: وأمَّا قولكم إنَّ الله لا يصطفي من عباده ظالمًا لنفسه، لأنَّ الاصطفاءَ هو الاختيار من الشيء صفوتَه وخيارَه إلىٰ آخر ما ذكرتم، فجوابُه أنّ كون العبد مصطفًىٰ لله وليًّا له محبوبًا له ونحو ذلك من الأسماء الدالّة علىٰ شرف منزلة العبد وتقريب الله له لا ينافي ظلمَ العبدِ نفسَه أحيانًا بالذنوب والمعاصي. بل أبلغُ من ذلك أن صديقيَّته لا تُنافي ظلمه لنفسه. ولهذا قال صدِّيقُ الأمة وخيارُها للنبي ﷺ: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال: «**قل: اللهم إني**

ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[1].

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٥]، فأخبر سبحانه عن صفات المتقين وأنَّهم يقع منه ظلمُ النفس والفاحشة، لكن لا يصرُّون علىٰ ذلك.

وإذا كان ظلم النفس لا ينافي الصدِّيقيَّة والولاية، ولا يُخرِج العبد عن كونه من المتّقين، بل يجتمع فيه الأمران: يكون وليًّا لله صدِّيقًا متّقيًا، وهو مسيءٌ ظالمٌ لنفسه= عُلِمَ أنَّ ظلمَه لنفسه لا يُخرجه عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثَهم كتابَه، إذ هو مصطفًىٰ من جهة كونه من ورثة الكتاب علمًا وعملًا، ظالمٌ لنفسه من جهة تفريطه في بعض ما أُمر به وتعدِّيه بعضَ ما نهي عنه. كما يكون الرجل وليًّا لله محبوبًا له من جهة، ومبغوضًا له من جهة أخرىٰ.

ونكتةُ **المسألة** أنَّ الاصطفاء والولاية والصديقيَّة وكون الرجل من الأبرار والمتّقين ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التَجزِّي والانقسام والكمال والنقصان، كما هو ثابتٌ باتفاق السلف في أصل الإيمان، وعلىٰ هذا فيكون هذا القسم مصطفًىٰ من وجه، ظالمًا لنفسه من وجه آخر.

وظلم النفس نوعان: نوعٌ لا يبقىٰ معه شيء من الإيمان والولاية

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

والصديقية والاصطفاء، وهو ظلمها بالشرك والكفرِ. ونوع يبقىٰ معه حصَّةٌ من الإيمان والاصطفاء والولاية، وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدرِ والوصف.

فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل إشكالها بحمد الله.

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ هذا الآيات نظير آيات الواقعة وسورة الإنسان وسورة المطفّفين في تقسيم الناس إلىٰ ثلاثة أقسام: أصحابُ الشمال، وأصحابُ اليمين، والمقرَّبون؛ فلا ريب أنَّ هذه الآية وافية بالأقسام الثلاثة مع مزيد تقسيم آخر، وهو تقسيم أصحاب اليمين إلىٰ ظالم لنفسه ومقتصد، فهي مشتملة علىٰ تلك الأقسام وزيادة.

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ الآثار الدالَّة علىٰ أنَّ الأصناف الثلاثة هم السعداءُ أهل الجنَّة ضعيفة لا تقوم بها حجَّة، فجوابه أنَّها قد بلغت في الكثرة إلىٰ حدٍّ يشدُّ بعضُها بعضًا ويشهد بعضها لبعض.

والمقصود الكلام علىٰ مراحل العالمين وكيفية قطعِهم إيَّاها، فلنرجع إليه فنقول:

أمَّا الأشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين إلىٰ دار الشقاء متزوِّدين غضبَ الربّ سبحانه، ومعاداةَ كتبه ورسله وما بُعِثوا به، ومعاداةَ أوليائه، والصدَّ عن سبيله، ومحاربةَ من يدعو إلىٰ دينه، ومقاتلةَ الذين يأمرون بالقسط من النَّاسِ، وإقامةَ دعوةٍ غير دعوة الله سبحانه التي بَعث بها رسلَه لتكون الدعوة له وحده؛ فقطع هؤلاء الأشقياءُ مراحل أعمارهم في ضدّ ما يحبّه ويرضاه.

وأمَّا السائرون إليه، فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته

ولذَّاته علىٰ مراضي الربّ وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه، مأسور مع حظِّه وهواه، يعلم سوءَ حاله، ويعترف بتفريطه، ويعزم علىٰ الرجوع إلىٰ الله. فهذا حال المسلم.

وأمَّا من زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسنًا، وهو غير معترفٍ ولا مقرٍّ ولا عازم علىٰ الرجوع إلىٰ الله الإنابة إليه أصلًا، فهذا لا يكاد إسلامُه أن يكون صحيحًا أبدًا، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من الخذلان.

وأمَّا الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله، وعقد القلبِ علىٰ ترك مخالفته ومعاصيه، فهممُهم مصروفة إلىٰ القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة.

فأوَّل ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلىٰ قلبه القيامُ إلىٰ الوضوءِ والصلاة كما أمر الله.

فإذا حضر فرضُ الظهر بادر إلىٰ التطهُّر والسعي إلىٰ الصفِّ الأوَّل من المسجد، فأدَّىٰ فريضته كما أُمِر مكمِّلًا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرَّبّ.

فينصرف من الصلاة وقد أثَّرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارًا تبدو علىٰ صفحاته ولسانه وجوارحه. قد نَهَتْه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر، وحبَّبتْ إليه لقاءَ الله ونفَّرتْه من كل قاطع يقطعه عن الله، فهو مغموم مهموم كأنَّه في سجنٍ حتىٰ تحضر الصلاة، فإذا حضرت قام إلىٰ نعيمه وسروره وقرَّة عينه وحياة قلبه، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة.

هذا، وهم في ذلك كلّه مراعون لحفظ السنن لا يُخِلّون منها بشيء ما

أمكنهم. فيقصدون من الوضوءِ أكملَه، ومن الوقت أوَّله، ومن الصفوف أوَّلها عن يمين الإمام أو خلف ظهره.

ويأتون بعد الفريضة بالأذكار المشروعة.

هذا دأبهم في كلِّ فريضة.

فإذا كان قبل غروب الشمس توفَّرُوا علىٰ أذكار المساء الواردة في السنة نظيرَ أذكار الصباح الواردة في أول النهار، لا يُخِلُّون بها أبدًا.

فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنّة.

فإذا استيقظ عاد إلىٰ عَدَّانه الأوَّل[١]. ومع هذا فهو قائمٌ بحقوق العباد من عيادة المرضىٰ، وتشييع الجنائز، وإجابة الدعوة، والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال، وزيارتهم، وتفقُّدهم؛ وقائمٌ بحقوق أهله وعياله. فهو متنقِّلٌ في منازل العبوديَّة كيف نقله فيها الأمرُ. فإذا وقع منه تفريط في حقٍّ من حقوق الله بادر إلىٰ الاعتذارِ والتوبة والاستغفار، ومحوه ومداواته بعملٍ صالح يُزيل أثرَه. فهذا وظيفته دائمًا.

وأمَّا السابقون المقرَّبون، فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أوَّلًا مِن وصف حالهم وعدم الاتّصاف به، بل ما شمِمنا له رائحةً، ولكن محبَّة القوم تحمل علىٰ تعرُّف منزلتهم والعلم بها. وإن كانت النفوس متخلفةً منقطعةً عن اللحاق بهم.

فاسمع الآن وصفَ القومِ، وأحضِرْ ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل. فإن وجدتَ من نفسك حركةً وهمَّةً إلىٰ التشبّه بهم فاحمد الله، وادخل، فالطريق واضح، والباب مفتوح.

---

(١) أي: إلىٰ عهده الأول.

إذا أعجبتْك خصالُ امرئٍ فكُنْه يكنْ منك ما يُعجِبُكْ
فليسَ علىٰ الجودِ والمكرماتِ إذا جئتَها حاجبٌ يحجُبُكْ[1]

فنبأ القومِ عجيب، وحالُهم أعجَب، وأمرُهم أخفىٰ إلا علىٰ من له مشاركة مع القوم، فإنَّه يطّلع من حالهم علىٰ ما يريه إيَّاه القدرُ المشترك.

وجلمة أمرهم: أنَّهم قوم قد امتلأت قلوبُهم من معرفة الله، وعُمِرتْ بمحبَّته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسَرَت المحبَّةُ في أجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مَفْصِل إلا وقد دخله الحبُّ. قد أنساهم حبُّه ذكرَ غيره، وأوحشهم أنسُهم به ممن سواه. قد فنوا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه، ورجائه، والرغبة إليه، والرهبة منه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والسكون إليه، والتذلّل والانكسار بين يديه؛ عن تعلُّق ذلك منهم بغيره.

فإذا وضع أحدُهم جنبَه علىٰ مضجعه صعدت أنفاسُه إلىٰ إلهه ومولاه، واجتمع همُّه عليه، متذكِّرًا صفاتِه العلىٰ وأسماءَه الحسنىٰ، مشاهدًا له في أسمائه وصفاته، قد تجلَّت علىٰ قلبه أنوارُها، فانصبغ قلبُه بمعرفته ومحبَّته، فبات جسمُه في فراشه يتجافىٰ عن مضجعه، وقلبُه قد أوىٰ إلىٰ مولاه وحبيبه، فآواه إليه، وأسجدَه بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلًا منكسرًا من كلِّ جهة من جهاته. فيا لها سجدةً ما أشرَفَها من سجدة، لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم اللقاءِ!

وقيل لبعض العارفين: أيسجد القلبُ بين يدي ربِّه؟ قال: «إي والله، سجدةً لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم القيامة!»[2].

---

(١) من إنشاد أبي العيناء كما في «المحاضرات» للراغب (١/ ٣١٠).
(٢) من كلام سهل بن عبد الله التستري كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٢١/ ٢٨٧).

فشتَّان بين قلبٍ يبيت عنه ربِّه، قد قطع في سفره إليه بَيداءَ الأكوان وخرق حُجُبَ الطبيعة، ولم يقف عند رسم، ولا سكن إلىٰ علَم، حتَّىٰ دخلَ علىٰ ربِّه في داره، فشاهد عزَّ سلطانه، وعظمة جلاله، وعلوَّ شأنه، وبهاءَ كماله، وهو مستوٍ علىٰ عرشه يدبِّر أمر عباده، وتصعد إليه شؤونُ العباد، وتُعْرَض عليه حوائجُهم وأعمالُهم، فيأمر فيها بما يشاءُ، فينزل الأمرُ من عنده نافذًا كما أمر، فيشاهد الملِكَ الحقَّ قيَّومًا بنفسه، مقيمًا لكلِّ ما سواه، غنيًّا عن كلِّ من سواه، وكلُّ من سواه فقيرٌ إليه. ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]: يغفر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويفكُّ عانيًا، وينصر ضعيفًا، ويجبُر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويميت ويحيي، ويُسعد ويشقي، ويُضِلّ ويهدي، ويُنعم علىٰ قوم، ويسلب نعمته عن آخرين، ويُعزُّ أقوامًا ويذلُّ آخرين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين.

فإذا صارت صفاتُ ربِّه وأسماؤه مشهدًا لقلبه أنْسَتْه ذكرَ غيره، وشغلته عن حبِّ من سواه، وجذبت دواعي قلبِه إلىٰ حبِّه تعالىٰ بكلِّ جزءٍ من أجزاءِ قلبه وروحه وجسمه. فحينئذٍ يكون الربُّ تعالىٰ سَمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها؛ فبه يسمع. وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي. كما أخبر عن نفسه علىٰ لسان رسوله ﷺ[1].

فإذا استيقظ هذا القلب من منامه صعد إلىٰ الله بهمِّه وحبِّه وأشواقه مشتاقًا إليه، طالبًا له، محبًّا له، عاكفًا عليه.



(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، ولكن فيه: «فبي يسمع...» إلخ.

فصل

١/ ٤٥٦

فإذا استيقظ أحدهم، وقد بدر إلىٰ قلبه هذا الشأن، فأوَّلُ ما يجري علىٰ لسانه ذكرُ محبوبه، والتوجُّه إليه، واستعطافُه، والتملُّقُ بين يديه، والاستعانةُ به أن لا يخلّي بينه وبين نفسه، وأن لا يكِلَه إليها، فيكلَه إلىٰ ضَيْعةٍ وعجز وذنب وخطيئة، بل يكلأه كلاءَة الوليد الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

ذكر الله تعالىٰ عند الاستيقاظ

ثمَّ يقوم إلىٰ الوضوء بقلب حاضر مستصحِب لما فيه.

ثمَّ يصلّي ما كتب الله له صلاةَ محبٍّ ناصحٍ لمحبوبه متذلل منكسرٍ بين يديه، لا صلاةَ مُدِلٍّ بها عليه، يرىٰ من أعظم نعم محبوبه عليه أنْ أقامه وأنام غيرَه، واستزاره وطرد غيرَه، وأهَّله وحرَم غيره، فهو يزداد بذلك محبَّةً إلىٰ محبته. يرىٰ أنَّ قرَّة عينه وحياةَ قلبه وجنَّة روحه ونعيمَه ولذَّته وسرورَه في تلك الصلاة، فهو يتمنَّىٰ طولَ ليله، ويهتمُّ بطلوع الفجر، كما يتمنىٰ المحب الفائز بوصول محبوبه ذلك. فهو كما قيل:

يودُّ أنَّ ظلامَ اللّيل دامَ له وزِيدَ فيه سوادُ القلبِ والبصَرِ[1]

فهو يتملَّق فيها مولاه تملُّقَ المحب لمحبوبه، العزيز الرحيم، ويناجيه بكلامه معطيًا لكلِّ آية حظّها من العبوديَّة. فتجذب قلبَه وروحَه إليه آياتُ المحبَّة والوداد، والآياتُ التي فيها الأسماءُ والصفات، والآياتُ التي تعرَّفَ بها إلىٰ عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه إليهم. وتطيِّبُ له السيرَ آياتُ

(١) لأبي العلاء في «سقط الزند» (٥٦).

الرجاء والرحمة وسعة البرّ والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يطيّب له السيرَ ويهوِّنه عليه. وتُقْلِقُه آياتُ الخوف والعدل والانتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه، العادلين به غيرَه، المائلين إلىٰ سواه؛ فتجمعه عليه وتمنعه أن يشرد قلبه عنه. فتأمَّلْ هذه النكتةَ، وتفقَّهْ فيها، والله المستعان، ولا حول ولا قوَّة إلا به.

بل ثَمَّ شأن آخر لو فطن له العبد لعلِمَ أنَّه كان قبلُ يلعب.

فوا أسفاه! وواحسرتاه! كيف ينقضي الزمان، وينفد العمر، والقلب محجوب ما شمَّ لهذا رائحة! وخرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أطيبَ ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم، وانتقل منها انتقالَ المفاليس، فكانت حياتُه عجزًا، وموتُه كمدًا، ومعاده حسرةً وأسفًا!

اللهم فلك الحمد، وإليك المشتكىٰ، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بك.



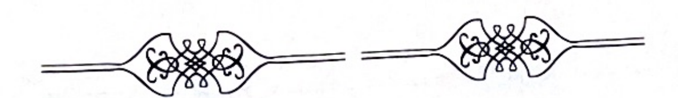
فصل

١/ ٤٦٠

ذكر الله تعالىٰ قبل النوم وبعده

فإذا صلَّىٰ ما كتب الله جلس مُطرقًا بين يدي ربِّه تعالىٰ هيبةً له وإجلالًا، واستغفره استغفارَ من قد تيقَّن أنَّه هالك إن لم يغفر له ويرحمه. فإذا قضىٰ من الاستغفار وطرًا، وكان عليه بعدُ ليلٌ اضطجع علىٰ شقِّه الأيمن مُجِمًّا نفسَه، مريحًا لها، مقوِّيًا علىٰ أداء وظيفة الفرض، فيستقبله نشيطًا بجده وهمته كأنَّه لم يزل نائمًا طول ليلته لم يعمل شيئًا. فهو يريد أن يستدرك ما فاته في صلاة الفجر، فيصلِّي السنة ويبتهل بينها وبين الفريضة، فإنَّ لذلك الوقت شأنًا يعرفه من عرفه. ويكثر فيه من قول «يا حيُّ يا قيوم لا إله إلا أنت»، فلهذا الذكر في هذا الموطن تأثيرٌ عجيب.

ثمَّ ينهض إلىٰ صلاة الصبح قاصدًا الصفَّ الأوَّل عن يمين الإمام أو خلف قفاه. فإن فاته ذلك قصدَ القربَ منه مهما أمكن، فإنَّ للقربِ من الإمام تأثيرًا في سرِّ الصلاة. ولهذا القربِ تأثيرٌ في صلاة الفجر خاصَّةً يعرفه من عرف قوله تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].



فصل

١/ ٤٦٦

ذكر الله تعالىٰ بعد صلاة الصبح

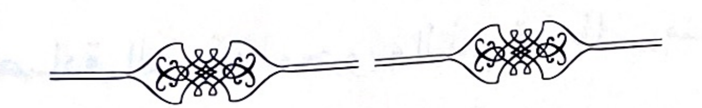
فإذا فرغَ من صلاة الصبح أقبل بكلّيّته علىٰ ذكر الله والتوجّه إليه بالأذكار التي شُرِعَت أوَّل النَّهارِ، فيجعلها وِردًا له لا يُخِلُّ به أبدًا، ثمَّ يزيد عليها ما شاءَ من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتىٰ تطلع الشمس حسنًا. فإذا طلعت فإن شاء ركع ركعتي الضّحىٰ وزاد ما شاء، وإن شاء قام من غير ركوع.

ثمَّ يذهب متضرِّعًا إلىٰ ربِّه، سائلًا له أن يكون ضامنًا عليه، متصرِّفًا في مرضاته بقيّة يومه. فلا ينقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاةُ ربه، وإن كان من الأفعال العاديّة الطبيعيّة قَلَبه عبادةً بالنية، وقصَدَ الاستعانة به علىٰ مرضاة الربّ. وبالجملة فيقف عند أوَّل الداعي إلىٰ فعله، فيفتّش ويستخرج منه منفذًا ومسلكًا يسلك به إلىٰ ربِّه. فينقلب في حقّه عبادة وقربة. وشتَّان كم بين هذا وبين من إذا عرض له أمر من أوامر الربّ لا بدّ له من فعلِه، وفتَّش فيه علىٰ مرادٍ لنفسه وغرضٍ لطبعه، ففعله لأجل ذلك، وجعل الأمر طريقًا له ومنفذًا لمقصده. فسبحان من فاوت بين النفوس إلىٰ هذا الحد والغاية! فهذا عباداته عادات، والأوَّل عاداته عبادات!

فإذا جاءَ فرضُ الظهر بادرَ إليه كذلك مكمِّلًا له، ناصحًا فيه لمعبوده كنصح المحبّ الصادق المحبّة لمحبوبه الذي قد طلب منه أن يعمل له شيئًا ما، فهو لا يُبقي مجهودًا، بل يبذل مقدوره كلَّه في تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله، ليقع موقعًا من محبوبه، فينال به رضاه عنه وقربه منه. أفلا يستحيي العبدُ من ربِّه ومولاه ومعبوده أن لا يكون في عمله هكذا، وهو يرىٰ المحبّين

في أشغال محبوبيهم من الخلقِ كيف يجتهدون في إيقاعها علىٰ أحسن وجه وأكمله، بل هو يجد من نفسه ذلك مع من يحبّه من الخلق، فلا أقلَّ من أن يكون مع ربِّه بهذه المنزلة. ومَن أنصف نفسه وعرف أعمالَه استحيا من الله أن يواجهه بعمله أو يرضاه لربه، وهو يعلم من نفسه أنَّه لو عملِ لمحبوبٍ له من النَّاس لبذل فيه نُصْحَه، ولم يَدَعْ من حسنه شيئًا إلا فعَلَه.

وبالجملةِ، فهذا حال هذا العبد مع ربِّه في جميع أعماله، فهو يعلم أنَّه لا يوفي هذا المقام حقَّه، فهو أبدًا يستغفر الله عقيب كلّ عمل. وكان النبيُّ ﷺ إذا سلَّم من الصلاة استغفر الله ثلاثًا. وقال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، قال الحسن: مدُّوا الصلاة إلىٰ السحر، ثمَّ جلسوا يستغفرون ربَّهم. وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، فأمر سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة. وشُرع للمتوضئ أن يقول بعد وضوئه: «**اللهُمَّ اجْعَلْنِي من التَّوَّابِينَ واجْعَلْنِي من المتطهرين**». فهذه توبة بعد الوضوء، وتوبة بعد الحجِّ، وتوبة بعد الصلاة، وتوبة بعد قيام الليل. فصاحب هذا المقام مضطرٌّ إلىٰ التوبة والاستغفار كما تبيَّن، فهو لا يزال مستغفرًا تائبًا، وكلَّما كثرت طاعاتُه كثرت توبتُه واستغفارُه.



فصل

١/ ٤٦٨

تكميل العبودية لله ﷻ في الظاهر والباطن

وجماع الأمر في ذلك إنَّما هو بتكميل عبوديَّة الله ﷻ في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلُّها في محبوبات الله، فكمالُ عبوديّة العبد موافقتُه لربِّه في محبَّة ما أحبَّه، وبذلُ الجهدِ في فعله؛ وموافقتُه في كراهة ما كرهه، وبذلُ الجهد في تركه. وهذا إنَّما يكون للنفس المطمئنَّة، لا للأمَّارة ولا للوَّامة. فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل.

وأمَّا من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرتُه منفتحةً في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاصّ فيها مطابقٌ لما جاء به الرسول ﷺ لا مخالفٌ له، فإنَّ بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف. ويكون مع ذلك قائمًا بأحكام العبوديّة الخاصَّة التي تقتضيها كلُّ صفة بخصوصها.

فالسيرُ إلىٰ الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب، وفتحُه عجب. صاحبه قد سبق السُّعاة، وهو مستلقٍ علىٰ فراشه، غيرُ تعبٍ ولا مكدود، ولا مشتَّتٍ عن وطنه، ولا مشرَّدٍ عن سكنه. ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].



فصل

١/ ٤٧١

من كمال العبودية تسليم التدبير لله تعالىٰ

ومن شأن القوم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذي يخالف تدبير ربِّهم تعالىٰ واختياره، بل قد سلَّموا إليه سبحانه التدبير كلَّه، فلا يزاحم تدبيرُهم تدبيرَه ولا اختيارُهم اختيارَه، لتيقُّنِهم أنَّه الملك القاهر القابض علىٰ نواصي الخلق، المتولِّي لتدبير أمر العالم كلِّه، وتيقُّنهم مع ذلك أنَّه الحكيم في أفعاله الذي لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة. فلم يُدخلوا أنفسهم معه في تدبيره لملكه وتصريفِه أمورَ عباده بـ«لو كان كذا وكذا»، ولا بـ«عسىٰ ولعلَّ»، ولا بـ«ليتَ»، بل ربُّهم تعالىٰ أجل وأعظم في قلوبهم من أن يعترضوا عليه، أو يسخطوا تدبيرَه.

وبعض العارفين يجعل عيب المخلوقات وتنقيصها بمنزلة العيب لصانعها وخالقها؛ لأنَّها صُنْعُه وأثرُ حكمته. وهو سبحانه أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقه، وأتقن كلَّ شيءٍ، فهو أحكمُ الحاكمين وأحسن الخالقين، له في كلِّ شيءٍ حكمةٌ بالغة، وفي كلِّ مصنوعٍ صُنْعٌ متقَن. والرجلُ إذا عابَ صنعةَ رجلٍ آخر وذمَّها سرىٰ ذاك إلىٰ الصانع، لأنَّه كذلك صنعَها، وعن حكمته أظهَرها، إذ كانت الصنعة مجبولةً لم تصنع نفسها، ولا صُنْعَ لها في خلقها. فالعارفُ لا يعيب إلا ما عابه الله، ولا يذمُّ إلا ما ذمَّه.

وإذا سبقَ إلىٰ قلبه ولسانه عيبُ ما لم يعِبْه الله وذمُّ ما لم يذمَّه، تاب إلىٰ الله منه كما يتوب صاحبُ الذنبِ من ذنبه، فإنَّه يستحيي من الله أن يكون في داره وهو يعيب آلات تلك الدار وما فيها. فهو يرىٰ نفسه بمنزلة رجلٍ دخل إلىٰ دار

مِلِك من الملوك، ورأىٰ ما فيها من الآلات والبناءِ والترتيب، فأقبل يعيب منها بعضَها ويذمُّه ويقول: لو كان كذا بدل كذا لكان خيرًا، ولو كان هذا في مكان هذا لكان أولىٰ.

والمقصود أنَّ مِن شأن القوم تركَ الاهتمام بالتدبير والاختيار، بل همُّهم كلّه في إقامة حقّه عليهم. وأمَّا التدبير العام والخاصّ فقد سلَّموه لوليّ الأمر كله ومالكه الفعَّال لما يريد.

هذا فيما يجري علىٰ أحدهم من فعل الله وحكمه وقضائه الكوني. فإذا جاءَ الأمرُ جاءت الإرادة والاختيار، والسعي والجِدّ واستفراغ الفكر وبذل الجهدِ. فهو قويٌّ حيٌّ فعَّال، يشاهد عبودية مولاه في أمره، فهو متحرك فيها بظاهره وباطنه، قد أخرج مقدوره من القوَّة إلىٰ الفعل. وهو مع ذلك مستعين بربِّه، قائمٌ بحوله وقوته، ملاحِظ لضعفه وعجزه، قد تحقَّق بمعنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فهو ناظرٌ بقلبه إلىٰ مولاه الذي حرَّكه، مستعين به في أن يوفّقه لما يحبُّه ويرضاه، عينُه في كلِّ لحظةٍ شاخصةٌ إلىٰ حقّه المتوجّه عليه لربِّه، ليؤديه في وقته علىٰ أكمل أحواله.

فإذا وردت عليهم أقدارُه التي تصيبهم بغير اختيارهم قابلوها بمقتضاها من العبودية، وهم فيها علىٰ مراتب ثلاثة:

أحدها: الرضا عنه فيها والمزيد من حبه والشوق إليه. وهذا نشأ من مشاهدتهم لِلُطْفه فيها وبرّه وإحسانه العاجل والآجل، ومن مشاهدتهم حكمتَه فيها ونصبَها سببًا لمصالحهم، وسَوقهم بها إلىٰ حبّه ورضوانه. ولهم في ذلك مشاهد أُخر لا تسعها العبارة، وهي فتح من الله علىٰ العبد لا يبلغه علمه ولا عمله.

المرتبة الثانية: شكره عليها كشكره علىٰ النعم. وهذا فوق الرضا عنه بها. ومنه ينتقل إلىٰ هذه المرتبة، فهذه مرتبتان لأهل هذا الشأن.

والثالثة: للمقتصدين وهي مرتبة الصبر التي إذا نزل منها نزل إلىٰ نقصان الإيمان وفواته، من التسخُّط والتشكّي، واستبطاء الفرج، واليأس من الرَّوح، والجزَع الذي لا يفيد إلا فواتَ الأجر وتضاعُف المصيبة. فالصبر أوَّل منازل الإيمان ودرجاته، وأوسطها، وآخرها؛ فإنَّ صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبرَ في مرتبته، بل الصبر معه، وبه يتحقّق الرضا والشكر، لا تصوُّرَ ولا تحقّقَ لهما دونه.

وهكذا كلُّ مقامٍ مع الذي فوقه، كالتوكّل مع الرضا، وكالخوف والرجاء مع الحبِّ، فإنَّ المقام الأوَّل لا ينعدم بالترقّي إلىٰ الآخر -ولو عُدِم لخلفه ضدُّه، وذلك رجوع إلىٰ نقص الطبيعة وصفات النفس المذمومة- وإنَّما يندرج حكمُه في المقامِ الذي هو أعلىٰ منه، فيصير الحكم له، كما يندرج مقام التوكّل في مقام المحبَّة والرضا. وليس هذا كمنازل سير الأبدان الذي إذا قطع منها منزلًا خلَّفه وراءَ ظهره، واستقبل المنزل الآخر معرضًا عن الأوَّل تاركًا له. بل هذا كمنزلة التَّاجر الذي كلَّما باع شيئًا من ماله وربح فيه، ثمَّ باع الثاني وربح، فقد ربح بهما معًا، وهكذا أبدًا يكون ربحُه في كلِّ صفقة متضاعفًا بانضمامه إلىٰ ما قبله، فالربح الأوَّل اندرج في الثاني ولم يُعْدَم.

فتأمَّل هذا الموضع وأعطه حقَّه يَزُلْ عنك ما يعرض من الغلط في علل المقامات ودعوىٰ المدَّعي أنها من منازل العوام.